



خطبة صلاة الجمعة 30 / 1 / 2015 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(كيف يعرف المرء عيوب نفسه)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ لِحَيْرٍ مُّتَتَلٍّ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَّبُ).

قال تعالى في وصف نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

قَالَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: لَبَّيْكَ).

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوَضَّعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ» [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الثانية في سلسلة جديدة من الخطب عنوانها (فضيلة... أخلاق تعاملية).

الخُلُق: هو السَّجِيَّة والطَّبع. وعَرَّفَه الإمام الغزالي بأنه: (هيئة في النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر، من غير حاجة إلى فكر وروية).

يطبع الله تعالى أناساً على بعض الأخلاق النبيلة، بينما يحتاج آخرون إلى التدرب عليها والتطبع بها حتى تصبح طبعاً لهم وخلقاً.

بينما يطبع آخرون على خلال حميدة أخرى، فيحتاج الأولون إلى التدرب عليها لتصير لهم طبعاً وخلقاً. فيتساوى العباد في التشريف والتكليف.

فبإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التطبع بالخصال الكريمة لتلتزمها. وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لا يليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

سبق في الأسبوع الماضي حديث عنوانه: لماذا هذه السلسلة؟

وعنوان خطبة اليوم: (كيف يعرف المرء عيوب نفسه؟)

(اكتشاف المرض نصف العلاج)، هذه قاعدة شهيرة في الطب، ولعلكم تعجبون - أيها الإخوة - إذا انتقلت إلى مسألة طريفة في الطب، وهي أن كليات الطب المعنيّة بتعليم الطبيب المحافظة على صحة المرضى تدرس في كثير من مقرراتها مادة الأمراض.

كأمراض العين، وأمراض الأذن والأنف والحنجرة، والأمراض الهضمية، وأمراض الجهاز التنفسي، وأمراض القلب، والأمراض النسائية، والأمراض العصبية... وهكذا.

ولا عجب في الأمر فمعرفة المرض وتشخيصه نصف العلاج.

إن معرفة المرء عيوب ذاته، ومساوئ أخلاقه، ورعونات نفسه نصف الطريق إلى علاجه، ومادام المرء يرى نفسه كاملاً، ويطريه من حوله فيصدق نفسه، فلن يهتدي المرء إلى الزيادة من الخير والانفكاك عن الشر، جاء في الحكم العطائية: (أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها). ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه).

ومن هنا تأتي أهمية هذه الخطبة: كيف يعرف المرء عيوب نفسه؟

يعرف المرء عيوب نفسه بأربعة طرق:

1- **المعلم:** اتخذ لنفسك معلماً عارفاً بعيوب النفس والأخلاق، يُريك عيوب نفسك ورعونات أخلاقك، تتأدب عليه وتلزم قوله ونصحه.

يقول سيدنا أبو ذر رضي الله عنه: سابت رجلاً فعيرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم:

«يا أبا ذر، أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية..» [متفق عليه].

ومرّة أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر: يا رسول الله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**»، فقال له عمر: فإنه الآن -والله- لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الآن يا عمر**» [البخاري].

فأول طريق يبصّركَ عيوب نفسك وأخلاقك: **المعلّم**.

خُدِثْتُ عَنْ رَجُلٍ طَلَبَ عَامِلًا لَشِرْكَتِهِ فَجَاءَهُ عَامِلٌ وَسِيمٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَالْمَنْظَرِ، وَبَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ أَرْسَلَهُ لِإِيصَالِ بَضَاعَةٍ لَزْبُونٍ وَاسْتَلَامَ مَبْلَغَ مَالِيٍّ مِنْهُ فَمَا أَوْصَلَ الْعَامِلُ إِلَّا نِصْفَ الثَّمَنِ لِيَضَعَ النِّصْفَ الثَّانِي فِي جَيْبِهِ، وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ وَمِنْ خِلَالِ اتِّصَالِ بَيْنِ صَاحِبِ الْمَعْمَلِ وَالزَّبُونِ، عَلِمَ بِفَعْلِ الْعَامِلِ فَلَمَّا رَاجَعَهُ أَنْكَرَ الْمَالُ فَطُرِدَ مِنَ الشَّرْكَةِ.

بسوء الأخلاق تنقطع الأرزاق، لو أن هذا العامل كان ملتزماً عند معلم مؤدّب لأراه عيب نفسه في عدم حفظها الأمانة ودلّه على طريق الخلاص من الخيانة فسعد في الدارين.

بلغني عن رجل صار جدّاً وهو ينظر إلى أفلام سيئة حتى إنّ أحفاده يتعجبون من صنيعه.

لو أن هذا الرجل لزم معلماً مؤدّباً من صغره لدلّه على رعونات نفسه ومساوئ خلقه وعلى طريق التخلص منها فارتفع في الدارين.

ولعل واحداً منا يلزم معلماً ناصحاً فإذا نهره المعلم يوماً أو قسا عليه أو أخبره عن سيء أخلاقه شيئاً تبرم بالمعلم ونظر له نظرة المغضب وخرج ولم يعد، والإمام الشافعي يقول:

اصبر على مرّ الجفا من معلّم	فإنّ رسوخ العلم في نفراته
ومن لم يذق مرّ التعلم ساعة	تجرّع ذلّ الجهل طول حياته
ومن فاتهُ التّعليم وقت شبابه	فكبر عليه أربعاً لوفاته
وَدَاثُ الْفَقْرِ - وَاللَّهِ - بِالْعِلْمِ وَالتَّقَى	إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

فأول طريق يبصّركَ عيوب نفسك وسيء خُلُقِكَ: **المعلّم**.

2- **الصاحب الصادق**: اتخذ صديقاً صدوقاً خُلُوقاً دَيِّناً، واطلب إليه نصحك عند زللِكَ.

قال سيدنا عمر رضي الله عنه: (رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي).

أخرج البيهقي في السنن الكبرى عن أبي إسحاق قال: (دخلت امرأتِي على عائشة وزوجة يزيد بن أرقم، فقالت لها زوجة زيد: إني بعت زيدا بيعاً بثمانمائة نسيئة، واشتريته منه بستمائة نقداً، فقالت

عائشة رضي الله عنها: أبلغني زيداً أن قد أبطلت جهادك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن تتوب، بئسما شريت وبئسما اشتريت).

اعتزل داود الطائي الناس، فقليل له: لم لا تخالط الناس، قال: (ماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوي).
الصاحب الصدوق يذكر إذا نسيت، ويعينك إذا تذكرت، ويصّرك عيوب نفسك، والصاحب السوء المداهن: يخفي عنك عيوبك، ولا يزال يمدحك حتى تعظم عندك نفسك، وربما نسيت فلم يذكر، وربما ذكرت فلم يعنك.

صاحب أحدهم صاحباً وبعد سنة قال له: لا أريد أن ألقاك بعد هذا اليوم أو تلقاني، فسأله صاحبه عن السبب متعجباً؟! فقال له: أنا صاحبك من سنة ولم تنبهني على عيب من عيوي أبداً.
مثل الأخوين كمثل اليدين تغسل إحدهما الأخرى.

يرى الآخرون عيوبك أكثر مما تراه بنفسك، فاجتهد لتسأل إخوانك عن أخطائك ليخبروك بها.

3- الخصم:

استفد عيوبك من خصومك، فانظر ما يقوله أعداؤك عنك لتصلحه؛ لأنّ عين السخط تبدي المساوي، ومن هنا أنشدوا:

وعينُ الرّضا عن كلّ عيبٍ كليلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تَبْدِي الْمَسَاوِيَا

فمن تكلم عنك بالنقص فلا تنزعج لأنه قد يخبرك بعيوبك فتصححها.
وانتفاع الإنسان بخصم يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه، ويمدحه بما ليس فيه ويخفي عنه عيوبه.

4- المخالطة: فكلّ ما تراه مذموماً في الناس طالب نفسك بتركه وتجنّبه، وكل ما رأيته حسناً طالب نفسك بالتحلي به.

جاء أن الجاحظ سئل: ممن تعلمت الأدب؟ فقال: من قليل الأدب.

- قابل من يخلف الميعاد، فإذا كرهت فعله فانظر في نفسك هل تفعل مثله.

- يقترض إنسان منك قرضاً ثم يتأخر في سداه، فإذا كرهت فعله فانظر في نفسك هل تفعل مثله.

- حصلت خصومة بين شريكين فأرادا حل الشراكة واختارا صديقاً لي يكون محكّماً بينهما، جلس المحكم مع الشريك الأول لوحدهما ليتفق معه على ما سيأخذه من بضاعة، فإذا بالشريك يقول له: لا أريد أخذ هذا النصيب من البضاعة؛ لأنني بأخذه أضّر شريكي.

فالمطلع على هذه الحادثة عليه أن يتعلم الإنصاف في الخصومة، ويسأل نفسه هل له مثل هذا الإنصاف للناس في الرضا والغضب؟.

- عقد شاب على فتاة، وبعد أشهر قررت الفتاة مع أهلها أن لا يستمر العقد فطلبوا إنهاءه ولم يبدوا سبباً، فأرسل الشاب من يتكلم عليه بالسوء أمامهم - إيقاعاً بهم - ليعرف سبب هذا القرار، غير أنهم دافعوا عن الشاب في غيبته ولم يسمحوا لأحد أن يتكلم عليه.

فالمطلع على هذه الحادثة عليه أن يتعلم احترام الناس في حضورهم وغيبتهم، ويسأل نفسه هل له مثل هذا الخلق؟.

- شاهدت شاباً غضب فضرب الطاولة فكسر زجاجها وشقت يده، وهناك بعض النساء إذا غضبن صرخن حتى يُسمِعْنَ البناء بأسره.

فالمطلع على هذه الحوادث عليه أن يراجع نفسه، هل يفعل هو كفعلتهم إذا غضب؟!، فما كرهه من الناس فهو منه مكروه، وما أحبه فيهم فهو فيه محبوب. وقد جرت عادة الناس أن أحدهم يرى القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه. فالمخالطة طريق رابعة للتعرف على عيوب النفس.

أيها الأخ الكريم:

لا ريب أن معرفتك عيوب نفسك أول الطريق للتخلص منها، وإنَّ الله إذا أراد بعبد خيراً بصَّره بعيوب نفسه.

وقد قدمت الخطبة طرقاتاً أربعة تعينك على معرفة هذه العيوب فاستمسك بها.

(المعلم، الصاحب الصادق، الخصم، المخالطة).

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ**» [الترمذي].

والحمد لله رب العالمين